مسألة المعنى من منظور اللسانيات المعرفيَّة

مقاربة مفهومية

The issue of meaning in the cognitive linguistics
A conceptual approach

د. كمال بخوش *

تاريخ الإرسال: 2021/05/07	تاريخ القبول: 2021/06/05	تاريخ النشر: 2021/08/20

الملخص:

يمثّل الذهن المسألة الأهم في البحوث اللسانية ذات التوجّه المعرفيّ، والتي تركّز النقاش على مسألة اللّغة بما هي اشتغال ذهني، أين يتداخل في الموضوع ما هو لغوي مع ما هو غير لغوي. ومن أهم المباحث الشائكة في هذا التوجه، نجد قضيَّة المعنى، والذي مزال الموضوع الرئيس في النقاش سواء من حيث إنتاجه، أو من حيث تفكيكه وتلقيه، و هو ما سنحاول مقاربته انطلاقا من مجموعة من المصطلحات والمفاهيم الإجرائية في حقل اللسانيات المعرفية ،كمفهوم المعنى معرفيا، وعلاقة اللغة بالقدرة المعرفية العامة للإنسان، وكذا علاقة اللَّغة بالبنية التصورية للفرد، ومسألة الاستعارة بما هي تجلّ للقدرات الذهنية على بناء تصورات جديدة، و مفهوم الخطاب كبناء تصوري ... إلخ.

كلمات مفاتيح : لسانيات معرفيَّة ، لغة ، ذهن ،معنى . استعارة

*** *** ***

Abstract:

Cognitive linguistics is interested in the study of language as a cognitive concept and thus, it focuses on how things happen inside the mind where the linguistic and non linguistic ones overlap. In this paper, we aim at approaching the concept of meaning in terms of its production, deconstruction and reception. We started from some important terms and procedures in the field of cognitive linguistics; such as, the cognitive concept of meaning, the relation between

المؤلف المرسل: كمال بخوش Kamel.bekhouche@yahoo.fr

* جامعة المدية Kamel.bekhouche@yahoo.fr

meaning and human general cognitive ability, its relation with the person's cognitive structure, the issue of metaphor as a manifestation to the mental cognitive ability to build new concepts and the concept of discourse as cognitive structure.

Key words: cognitive linguistics; language; mind; meaning; metaphor.

*** *** ***

1- مقدمة :

لقد شكَّل الذهن في الدراسات اللسانية المعرفية[1] ا لموضوع الرئيس في النقاش الدائر حول مسألة اللَّغة، لذلك فإنّ جلَّ البحوث في هذا الحقل البحثي المعرفي تتوجَّه إلى بحث **مسألة اللغة بما هي اشتغال ذهني**، و هو ما يُترجم إجرائيا في الأسئلة الباحثة في علاقة اللغة بالفكر، وكذا في علاقة اللغة بالواقع الذي تصفه، بالاضافة إلى مسألة الفعل الإحالي الذي تؤدية اللغة بين الإنسان من جهة والوجود الذي يحيا فيه من جهة أخرى [2] " فلم يعد التركيز قائما على النظام اللغوي كأنموذج تفسيري، و إنما أصبحت دراسة المعنى تستوجب دراسة البعد الذهني للغة" [3]، و إن كان الاختيار يبقى مفتوحا بين لسانيات ذات استقلال ذاتي autonome أو داخلية، و لسانيات خارجية مرتبطة بقدراتنا العرفانية العامة و بمعرفة العالم[4]، فما هي حدود المعنى من المنظور المعرفيّ ؟ و ما هي المفاهيم المسيّجة له في هذا السياق؟.

2- مقاربة اللغة معرفيّا :

إنَّ هذا التوجُّه يتجَاوزَ – كما ذكرنا في المقدمة- المقاربات التقليدية للغَّة التي تأسست على الفصل الصارم بين اللغة كبنية صورية مجردة و بينها كممارسة إجرائية إذ إنّ هذه الأخيرة تخضع لإكراهات غير صورية مرتبطة بذاتية الإنسان و ما يملكه من قدرات عقلية من جهة، و وفقا لسياقاته الفكرية والثقافية التي تشكّل إطاره الوجودي وتؤثِّثُه بشكل عام من جهة أخرى " فبدل أن تكون اللغة وحدة متميّزة مكتفية بذاتها (منظومة أو ملكة ذهنية منعزلة) تعتبر وجها من صميم العرفنة لا يتجزأ عنها"[5]

لقد فتح هذا التصور النقاش واسعا حول طبيعة اللّغة من المنظور المعرفي، والمتماهية في حركتها مع حركية النشاط الإنساني ذاته، و في هذا السياق يذهب الباحث الأمريكي رونالد لانقاكر (Ronald Langacker) في المقاربات المعرفية للَّغة على أنه"**يجب**

أن ينظر إلى اللغة نظرة حركية من حيث هي شيء يفعله الناس،بدلا أن تكون شيئا يملكونه(...) وزيادة على ذلك يكون النشاط اللغوي اجتماعيا ثقافيا في طبيعته " [6] .

إذن فاللغة من الزاوية المعرفية هي:

1- شيء يفعله الناس و لا يملكونه.

2- اللغة نشاط اجتماعي و ثقافي في طبيعته.

3- اللغة تتميّز بالحركية في مقابل السكون (الثبات).

3- معرفيّة اللّغة والقدرة المعرفيّة العامة للإنسان :

إنّ ما يميّز القدرات المعرفية العامة للبشر هي القدرة على التعامل مع الأشياء و فق تجريد عالي التنضيد، فيمكن التمييز مثلا بين الأشياء التي تعتبر مركزيّة و نظيرتها التي تعتبر هامشيّة، مع القدرة على تمثل العلاقة القائمة بينها، كما يستطيع الفرد أن يتمثَّل حدود الأشياء المتداخل بعضها في بعض، وأن يميّز بين القرب و البعد و أن يتصور ماهية الشيء الذي يخفيه شيء آخر ... و هكذا، و هو الأمر الحاصل مع اللغة، حيث إن للإنسان قدرات معرفيّة واستدلالية خاصة في إنتاج اللغة و تلقيها بناء على منظومته الإدراكية العامة التي تحكم معرفته للّغة ذاتها، ومعرفته لكيفية التواصل بها، وإدراكه للسياق اللغوي من ناحية والسياق الذي يحيا فيه من ناحية أخرى مع القدرة على الربط بين السياقين إنتاجا و تلقيا...إلخ . و هذا يعني أن اللغة هي : [7]

- جزء من التجربة الإنسانية العامة.
- متجسدة، بمعنى أن جزءا كبيرا منها يعتمد على حقيقة أننا كلنا في الأصل نتشارك في الشكل البشري ذاته والحالة الإنسانية ذاتها، فليس ثمة ما يدعو للدهشة أن نجد استعارات مشتركة أو بعض التركيبات اللغوية المتشابهة بين لغات العالم.
- مبنية على أساس الملكات الإدراكية الحسية الاخرى، مثل: السمع والبصر والتذوق واللمس والشم و الاحساس بالحيّز المادي و الحركة المادية (أو الجسدية).

4- الاستعارة تجلّ لمعرفيّة اللغة :

لعلّ من أهم الظواهر اللغوية التي يمكن من خلالها مقاربة اللغة من الزاوية المعرفية ظاهرة الاستعارة، فهي في جوهرها عملية ترتبط بالفكر الانساني، أي إنه لا يمكننا النظر إليها على أساس أنها مجاز فائض ذو قيمة تزيينية فقط، **ولكن كأداة معرفية**

لها دورهام في بناء المعاني و توليدها [8]. و هذا في التوظيف المخصوص للّغة، انطلاقا من المألوف منها، و هو ما يتولَّد عنه بنى لغوية خاصة تعكس كيفية تمثُّل الفرد للمعنى الذي عبّر عنه في سياق تواصلي محدد، فالبناء الاستعاري معناه خلق تصورات جديدة على المستوى الإدراكي للفرد، أي رؤية وجودية مختلفة للعالم الذي يحيا فيه.

لقد حدَّد جورج لايكوف (G .Lakooff) مجموعة من الأسس المحدّدة للاستعارة نلخصها في النقاط التالية : [9]

- ليست الاستعارة مفهومية فحسب، إنما هي مرتبطة بتجاربنا المتقمصة، و مرتبطة بجملة الملكات والاستعدادات المكتسبة لدى الفرد.
- تنتج الاستعارات لأنّ أدمغتنا مركبة بطريقة معينة.
- إنَّ المحتوى الخاص للاستعارات مرتبط ببنية العلاقات داخل تجربتنا اليومية
- تحافظ الاستعارة على التفكر والاستنتاج، **إنها لا تتعلق باللغة فحسب، و إنما بالتفكر كذلك.**

1-3- الاستعارة و مجالي المصدر و الهدف:

لفهم الاستعارة و كيفية تولّدها ومن ثم اشتغالها لا بدَّ من التمييز بين مصطلحين اثنين: المجال المصدر، والمجال الهدف، فـ " المجال المصدر (المفاهيم المألوفة) و المجال الهدف (المفاهيم غير المعروفة) "[10] فالبناء الاستعاري ينطلق من وضعية تصورية مألوفة و هي التي تمثل أرضية المنطلق، ليوَلِّد منها بنية تصورية غير مألوفة هي البنية الهدف، و هو ما يعني ربطا لخبرات معروفة في مجال معين من المعرفة، بخبرات جديدة قيد التحقيق، وهو ما نوضّحه بالمخطط التالي:

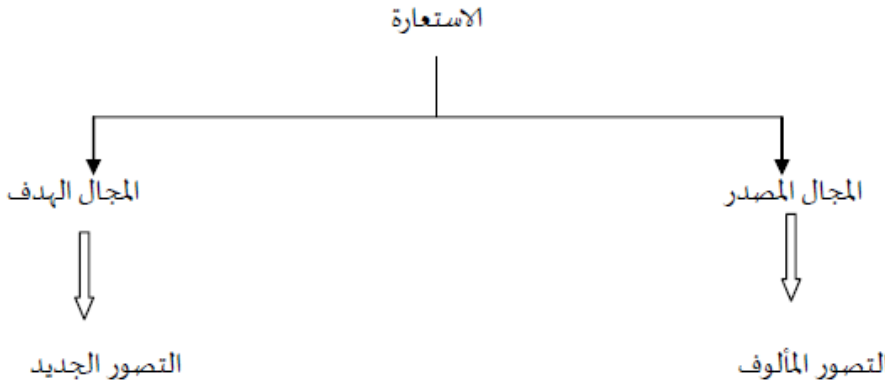

لنتأمل المثال الذي يقدمه رونالد لانقاكر (Ronald Langacker) في كتابه (مدخل في النحو العرفنّي) : **طارت الفكرة من رأسي تماما / the thought just flew right out of my head**

ففي هذا المثال يتحدّد المجال المصدر بأنه تصوّر لعصفور يطير من قفص، بما يستتبع ذلك من أن العصفور غائب، فلا يمكن أن يُرى، والمجال الهدف هو نتيجة لإسقاط الفضاء المصدر على الفضاء الهدف. فهو تصور هجين متخيّل في طبيعته " [11]، فالفضاء الهدف هو الذي يجري بناؤه بناء استعاريا، تحقيقا لقصد تبليغي تؤطره ملابسات التواصل العامة و شروطه.

إنّ الفعل الاستعاري، هو فعل بناء لواقع غير مألوف انطلاقا من واقع مألوف، وهو ما يترتب عنه **توسعة لا نهائية للمعنى**، تمكِّن الفرد من التعبير عن تصوراته الدقيقة وفقا لأغراض و وضعيات تواصلية محدّدة، بل هو تأسيس لعلاقة جديدة بين الإنسان والوجود و هذا بما : " للاستعارة من مردود استكشافي قوي تمكن - باعتماد القياس- من تفسير ميدان جديد أو قليل التحديد بميدان معروف"[12].

5- المعنى من المنظور المعرفي نتاج تفاعل ذهني معقد:

إن المعنى مسألة شائكة بالغة التعقيد، سواء من حيث بناؤه أو من حيث تلقيه، فهو تدخل فيه مجموعة من الاعتبارات، منها ما هو لغوي ومنها ما هو غير لغوي وفق حسابات استدلالية تستند إلى معطيات لغوية خطية، ومعطيات مقدرة ذهنيا متمثلة في

خلفية الفرد المعرفية، فالمعاني تبنى وفقا للتفاعل الاجتماعي، فعوض أن تكون ثابتة و محددة مسبقا، فإنّها تتكوّن بالتفاوض بين المتحاورين على أساس المقام المادي واللغوي والاجتماعي والثقافي . فالمعنى يمثل حصيلة إدراك الإنسان للعالم .

يرى **رونالد لانقاكر** أن معنى عبارة ما من منظور معرفي يستلزم أرضية مفهومية متعددة الوجوه تسنده وتشكّله، وتجعله منسجما، ومن وجوه هذه الأرضية:(13)

1- التصورات المستحضرة أو المنشأة خلال الخطاب السابق .
2- المشاركة في حدث الكلام نفسه جزءا من التفاعل الاجتماعي بين المتحاورين .
3- إدراك المقام المادي و الاجتماعي و الثقافي .
4- بالإضافة إلى كل مجال ممكن من مجالات المعرفة الذي تثبُت إفادته .

إن هذه الأرضية تمثل أرضية لعملية الفهم (بناء المعنى)، و هي العملية التي تمثل سيرورة إجرائية تعكس النشاط الذهني الذي يكون مرتبطا بشكل جذري بتفاعل الفرد في المستوى الاجتماعي، لأنّ المعاني اللغوية و إن كانت نتاج استدلالات ذهنية فردية، إلا أنها في الأخير بلورة مشتركة واتفاق بين مختلف المتدخلين في التفاعل.

يطرح **رونالد لانقاكر** في كتابة (مدخل إلى النحو العرفنّي) سؤالا وجيها بالقول: هل المعاني مركوزة في الرأس؟ و أين يمكن العثور على هذه المعاني ؟.

بمقابل التصور الأفلاطوني الذي يعتبر اللّغة وحدة تجريدية منقطعة عن الجسد لا يمكن تحديد موضعها. فتعتبر المعاني اللغوية مثل الأشياء والقوانين في الرياضيات متعالية موجودة بشكل مستقل عن الأذهان و عن الإرادة البشرية فإن التصور المعرفي المفهومي يرى أن المعنى مشتقا من التجربة البشرية المجسدنة (14) .

فالبحوث في اللسانيات المعرفية تتوجه إلى أن البناء الدلالي هو بناء تصوري حيث إن اللغة تشير إلى تصورات في ذهن المتكلم أكثر من إشارتها إلى أشياء في العالم الخارجي، لذلك **فالمعنى هو طريقة مخصوصة في انبناء ذلك المضمون على المستوى الذهني** .و هو ما يعني امكانية اختلاف التصورات حول الوضعية الموصوفة الواحدة، ولنأخذ المثال التالي : (15).

- مثال : **كوب يحتوي ماء يحتل نصف حجمه**

من المفترض أننا قادرون في المستوى المفهومي على استحضار هذا المفهوم بطريقة محايدة تماما، ولكن ما أن نشفره لغويا فإننا نفرض عليه بالضرورة انبناء معينا ، رغم ان الوضعية الموصوفة وحدة ، فنقول :

1- الكوب الذي فيه ماء the glass with water in it .
2- الماء الذي في الكوب the water in the glass .
3- الكوب نصف مليء the glass is half-full .
4- الكوب نصف فارغ the glass is halef-empty .

إن الملاحظ للأوصاف اللغوية المقدمة لحالة الكأس، تعكس اختلافا كبيرا في البنى التصورية، و هو ما يعني تباينا في رسم العالم و تحديده لغويا، ففي آخر المطاف نجد أن " **المعنى لا يطابق المفاهيم ولكن يطابق المفهمة، وتحدد المفهمة تحديدا واسعا لتضم أي وجه من وجوه التجربة الذهنية و هذا على نحو :** [16]

1- التصورات الجديدة و التصورات القائمة.
2- المفاهيم الحسية والحركية و التجربة العاطفية كذلك عوضا عن المفاهيم الذهنية فقط.
3- إدراك السياق المادي و اللغوي والاجتماعي و الثقافي .
4- التصورات التي تتبلور و تتجلى من خلال زمن المعالجة الذهنية .

فالمفهمة ليست سكونية حتى إذا ما اعتبرت (المفاهيم) كذلك.

6- الخطاب بناء ذهني متدرج :

إنّ الخطاب هو الحيّز الذي تلتقي فيه البنية المجردة بالاستعمال، " فليس الخطاب مجرد سلسلة من الكلمات أو المركبات الجملية، بقدر سلسلة من التصورات المقترنة بتلك الأشكال، و التي تنبثق الواحدة منها من سابقتها و تتطور منها، بوجه تتشكل فيه بتقدم الخطاب بنية مفهومية ذات تركب متزايد على التدريج. و تكون البنية التي كانت قد جمّعت في مرحلة سابقا جزءا من الطبقة التحتية المفهومية بالنسبة إلى كل بنية لاحقة. و هي مكون رئيسي من فضاء الخطاب الجاري الذي يؤدي في كل طور دورَ المقام لحدث الاستعمال الجاري" [17] . و لعلّ من بين النظريات اللسانية الغربية التي حاولت أن تقارب مسألة الخطاب من هذه الزاوية الذهنية نظرية الملاءمة لسبربر **لـ سبربر (D. Sperber)**

و ولسون (D. Wilson) و التي ترى أن الآدميين وهم يبلورون تمثلهم للعالم، محدودون بقدرات عقلية خاصة بالنوع البشري، فمن دون شك أن كل أفراد مجموعة ثقافية **يتقاسمون عددا من التجارب و المعارف و المو اقف**، لذلك فالسياق عندهما يتكون من **المعارف الموسوعية** التي نتوصل إليها من خلال **المعطيات التي يمكن إدراكها مباشرة** والمستقاة من المقام أو المحيط المادي، و من **المعطيات المستقاة من تأويل الأقوال السابقة.** و هو ما يسميه سبربر و ولسون **بالمحيط المعرفي للفرد**،الذي يمثل في الآن نفسه **ما يعرفه الفرد و ما يمكن أن يعرفه**، و مجموع ما توصل إليه وما يمكن أن يتوصل إليه في لحظة ما. ومن هذا المنظور يوافق السياق جزءا (صغيرا) من المحيط المعرفي لفرد ما في لحظة ما [18].

فبتنامي الخطاب، نحتفظ في ذاكرتنا في كل طور ببعض ما جرى من قبل، فنحن قادرون على أن نتذكَّر بإيجاز على الأقل شكل العبارات المخصوص، نستعيد بذلك الانبناء الذي تفرضه تلك العبارات على المضمون المستحضر، و نتذكر لفترة أطول تمتد في بعض الأحيان على قسم عظيم من الخطاب المضمون الذي جرى التعبير عنه، أي البنية المفهومية التي كانت تبنى على التدريج، و على المدى البعيد يمكن أن يكون الحفاظ على ذلك المضمون في شكل معرفة موسّعة .

7- هل التصورات نابعة من تجربتنا الجسدية ؟

من بين التصورات المفاتيح للدر س اللساني المعرفي، أن البنى التصورية للفرد أساسها التجربة اليومية التي يعيشها، فالمفاهيم التي يستطيع الوصول إليها والواقع الذي يفكر فيه ويتحدث عنه ،هم نتاج الفعل التجسيدي .

فتجربتنا الجسدية و الاجتماعية و طريقة استخدامنا لآليات الخيال تبدو محورية في طريقة بناء المقولات من أجل إنتاج المعنى.ذلك أن عملية تشكل المقولات تتم من خلال عملية التشخيص _**أي إن المقولات التي نشكّلها تمثل جزءا من تجربتنا، فعملية صياغة المقولات ليست عملية عقلية خالصة تحصل بعد التجربة، بل إنّ تكوّن المقولات و استعمالها هو مادة التجربة. إن المقولات جزء من التجربة تنصرف إليه أجسامنا و أدمغتنا باستمرار** [19]، فاللغة تشير إلى تصورات أكثر من إشارتها إلى حقيقة ملموسة، وأن صلة المعاني التقليدية بالتصورات و الأفكار أقوى من صلتها بالكلمات و الأشياء المادية، لذلك فالهم الأساسي لعلم اللغة الإدراكي يتركز في العلاقة بين البنية

التصورية و التفاعل الإنساني معها في وجود التجربة الحسية ، و هذا بحسب تعبير **فيفيان إفانز** [20] .

خاتمة :

بعد هذا العرض الموجز و المقولات المركزة لمسألة المعنى من الزاوية المعرفية نخلص إلى ما يلي :

1- أن اللغة نشاط ذهني.
2- أن اللغة شي يفعله الناس و لا يملكونه.
3- أن تصورات الفرد للعالم الذي يحيا فيه هي تصورات أساسها لغوي.
4- أن المعنى مسألة بالغة التعقيد من المنظور المعرفي.
5- أن ألآدميين وهم يبلورون المعاني يستندون إلى أرضية مفهومية تسندها معطيات لغوية و أخرى غير لغوية.
6- أن المعنى متغير بحسب تغير الأرضية التي نبلوره من خلالها.

*** *** ***

الهوامش:

1 - لقد تعدّدت المصطلحات المستعملة في البحوث اللسانية العربية للتعبيرعن المضمون المفهومي لمصطلح اللسانيات المعرفية،(L'inguistique Congitive) فنجد : اللسانيات الإدراكية،ومصطلح اللسانيات العرفانية وكذلك مصطلح اللسانيات العرفنيّة، غير أن الشائع في الاستعمال المغاربي هو مصطلح اللسانيات المعرفية و الذي تبنيناه في هذا المقال – مع الإبقاء على مرادفاته كما وردت في النصوص التي اقتبسناها - وهو المصطلح الذي يدلُّ على أن النشاط اللغوي مهما تكن خصوصيته محكوم بالآليات االمعرفية العامة الموجهة لسائر الأنشطة الانسانية الأخرى، فليست اللغة كيانا مكتفيا بذاته، و إنما هي جزء من بناء معرفي أوسع يتداخل فيه علم النفس و الذكاء الاصطناعي و علم وظائف الأعصاب و الإعلامية ...ألخ. للتوسع ، ينظر جيل فوكوناي ، الفضاءات الذهنية، تر منصور الميغري ، ضمن كتاب(إطلالات على النظريات اللسانية و الدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين)، إشراف عزالدين المجدوب، بيت الحكمة، تونس (2012) ، ج1 ص 388- 389

2 - مما انتهى إليه البحث اللساني التداولي ، أن للّغة دروا مهما في بناء العلاقة بين الإنسان والوجود من جهة، وكذا دورها في بناء الوجود ذاته من منطلق أن التصورات التي يمتلكها الفرد عن ذاته وعن العالم الذي يحيط به، هي تصورات لغوية في الأساس، فالفرد لا يمكن له أن ينفذ إلى العالم إلا من خلال نافذة اللغة، و أن

التصورات التي يمتلكها تمثل حقائق لغوية ، ذلك أن الفرد لا يمكن رؤيته للعالم إلا وفق الرؤية التي تحدّدها له اللغة.

3 - يسرهبيّل، الإحالة بين اللغة و الخطاب، الدار التونسية للكتاب (2017) ، ص 288.

4 - كلود فاندولواز ، استقلالية اللغة و العرفان ، تر: ثامري الغزي ، ضمن كتاب(إطلالات على النظريات اللسانية و الدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين)، إشراف عزالدين المجدوب، بيت الحكمة، تونس (2012) ، ج1 ص350.

5 - رونالد لانقاكر، مدخل في النحو العرفيّ، تر: الأزهر الزنّاد، معهد تونس للترجمة، تونس (2018)، ص 23-24.

6 - رونالد لانقاكر، مرجع سابق ، ص 353- 354 .

7 - بيترستوكويل ، الأسلوبية العرفانية، تر: رضوى قطيط ، ضمن مجلة فصول، المجلد 25 /4 العدد 100، الهيئة المصرية العامة للكتاب (2018) ، ص 108- 109

8 - إزابيل أوليفيرا ، الاستعارة الاصطلاحية من وجهة نظر عرفانية ، تر: حسن دواس، ضمن مجلة فصول، المجلد 25 /4 العدد 100، الهيئة المصرية العامة للكتاب (2018) ، ص 123.

9 - إزابيل أوليفيرا ، مرجع سابق ، ص 129

10 - إزابيل أوليفيرا ، مرجع سابق ،ص 125 .

11 - رونالد لانقاكر، مدخل في النحو العرفيّ ص 92-93 .

12 - باتريك شارودو و دومينيك منغنو ، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري و حمادي صمود، المركوز الوطني للترجمة، (تونس) 2008 .ص 366.

13 - رونالد لانقاكر، مرجع سابق ، ص 80.

14 - رونالد لانقاكر، المرجع السابق ص 57-58.

15 - رونالد لانقاكر، مالرجع السابق، ص 81.

16 - رونالد لانقاكر، المرجع السابق، ص 61

17 - رونالد لانقاكر، المرجع السابق ، ص 793-794.

18 - للتفصيل أكثرن ينظر مفتاح بن عروس ، الانسجام و الاتساق في القرآن الكريم (رسالة دكتوراه) جامعة الجزائر2008 ، ص 171 و ما بعدها .

19 - جورج لايكوف ، نساء و نار وأشياء خطيرة ، ما تكشفه المقولات حول الذهن ، ترعفاف موقو ، ضمن كتاب(إطلالات على النظريات اللسانية و الدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين)، إشراف عزالدين المجدوب، بيت الحكمة، تونس (2012) . ج1 ص317 .

20 - . ففيان إفانز و ميلاني جرين، ما هو علم الدلالة الإدراكي ، تر: أحمد الشيمي ، مجلة فصول، المجلد (4/25) ، ع100، الهيئة المصرية العامة للكتاب (2018)، ص 78..